

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

رسائل
الشيخ
الإمام
الشيخ
الإمام

في القرآن الكريم

حسن كامل الملقاوى

الطبعة الثالثة



دارالمغارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ).

(إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا).

[قرآن كريم]

* * *

عن جابر بن عبد الله أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقوم يوم الجمعة إلى شجرة أو نخلة ، فقالت امرأة من الأنصار أو رجل : يا رسول الله ، ألا نجعل لك منبراً ، قال : إن شئتم ، فجعلوا له منبراً ، فلما كان يوم الجمعة رُفِعَ إلى المنبر ، فصاحت النخلة صياح الصبي ، ثم نزل النبي صلى الله عليه وسلم فضمها إليه تنأزين الصبي الذي يُسَكَّن . قال جابر : كانت تبكي على ما كانت تسمع من الذكر عندها .

[حديث شريف رواه الإمام البخارى]

* * *

بأبي أنت وأمي يا رسول الله ! لقد كان جِدْعٌ تخطب الناس عليه فلما كثر الناس اتَّخَذْتَ منبراً لتسمعهم فحنَّ الجذع الفراقك حتى جعلت يدك عليه فسكن ، فأمتك كانت أولى بالحنين إليك لما فارقتهم . .

[عمر بن الخطاب]

تقديم

بقلم صاحب الفضيلة الأستاذ الدكتور عبد الحلیم محمود
وزير الأوقاف وشئون الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم . . . الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على
أشرف المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن اتبع هديه إلى يوم الدين ،
وبعد :

فيقول الله سبحانه وتعالى :

(لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، يَتْلُو
عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ، وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي
ضَلَالٍ مُبِينٍ) .

* * *

ولقد بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم رسالته بعد أن أعده الله سبحانه لتلقيها ،
إن الأنبياء والرسل يعدّهم الله سبحانه قبل ميلادهم ، إنه يعدّهم في أصلاب الآباء
والأجداد بالعرق الطاهر ، والميراث النقي . . . إنهم خيار من خيار من
خيار . . .

يروى الإمام مسلم - بسنده - عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :
« إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل ، واصطفى من ولد إسماعيل بنى كنانة ،
واصطفى من بنى كنانة قريشاً ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفاني من
بنى هاشم » .

لقد اصطفاه الله من بنى هاشم ، واصطنعه لنفسه ، ورباه على عينه . . .
لقد رباه سبحانه من قبل الميلاد ، ومن بعد الميلاد ، ليحمل الرسالة الكبرى ،
الرسالة العامة الخاتمة ، رسالة الإسلام .

ورسالة الإسلام : طابعها وشعارها وجوهرها ، إنما هو : إسلام الوجه لله ، هو السجود لله وحده ، هو : إياك نعبد وإياك نستعين ، إنه التوحيد ، أو هو الإسلام .
فكلمة الإسلام : تتضمن هذه المعاني التي تتحدد وتتبلور ، برغم اختلاف الحروف والنطق ، لتلتقى كلها منصهرة في كلمة : الإسلام .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعد من قبل الميلاد لحمل رسالة الإسلام ، وكان يعد من بعد الميلاد لحمل الرسالة : الإسلام .

ولقد سارت حياته بعد الميلاد على الطهر والنقاء ، وكان أول رمز جميل يعبر عن هذه الحياة ، حياة الصفاء والطهر : إنما هو رمز : «شق الصدر» .

وهذا الحادث وقع لرسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، منذ الطفولة المبكرة ، لقد كان صلوات الله وسلامه عليه — إذ ذاك — في بادية بني سعد ، عند مرضعته ، وبينما هو يلعب مع الغلمان — على ما يروى الإمام مسلم — أتاه جبريل فأخذه فأضجعه فشق عن قلبه ، فاستخرج منه علقة ، فقال : « هذا حظ الشيطان منك ، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم ، ثم لأمه ، ثم أعاده إلى مكانه » .

وجاء الغلمان يسعون إلى أمه — يعني مرضعته — يقولون إن محمداً قد قتل ، فاستقبلوه وهو ممتقع اللون ، وكان ذلك وهو ابن أربع سنوات تقريباً .

وهذا الحادث : إنما يرمز إلى أنه — صلوات الله وسلامه عليه — قد طهره الله منذ الطفولة من حظ الشيطان ، وصدق بذلك قسم والدته حينما قالت لمرضعته : « والله ما للشيطان عليه من سبيل » .

وطهره واستقامته منذ نشأته ، جعلها العرب يلقبونه بـ « الأمين » ، ولم تكن كلمة الأمين اسمًا له ، ولكنها كانت إذا أطلقت لا تنصرف إلا عليه ، وكانوا يفرحون بحكمه ، ويرضون بتحكيمه .

يقول الربيع بن خيثم : « كان يتحاكم إلى رسول الله ، في الجاهلية قبل الإسلام ، ثم اختص في الإسلام » ، ومن الأمثلة المشهورة في ذلك : قضاؤه صلى الله عليه وسلم في الخلاف الذي كان بين قريش بشأن وضع الحجر الأسود ، فإنهم حينما انتهوا في بناء الكعبة إلى حيث يوضع الركن من البيت ، قالت كل

قبيلة : « نحن أحق بوضعه » ، واختلفوا ، حتى خافوا القتال ، ثم جعلوا حكماً بينهم أول من يدخل من باب بنى شيبه فيكون هو الذى يقضى بينهم ، وقالوا : رضينا وسلمنا بذلك . فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أول من دخل من باب بنى شيبه ، فلما رأوه قالوا : هذا هو الأمين ، قد رضينا بما يقضى بيننا ، ثم أخبروه الخبر فوضع رسول الله صلى الله عليه وسلم رداءه ، وبسطه فى الأرض ، ثم وضع الركن فيه ، ثم قال : ليات من كل ربع من أرباع قريش رجل ، فكان فى ربع بنى عبد مناف : عتبة بن ربيعة ، وكان فى الربع الثانى : أبو زمعة ، وكان فى الربع الثالث : أبوحذيفة بن المغيرة ، وكان فى الربع الرابع : قيس بن عدى ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لياخذ كل رجل منكم بزواية من زوايا الثوب ، ثم ارفعه جميعاً » فرفعه . ثم وضعه رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده فى موضعه ذلك .

وهذه الحياة الطاهرة ، رافقها شعور مرهف بحب الله سبحانه ، والسجود له ، وتوحيده وإسلام الوجه له . . . وهذا الشعور حجب إليه الخلوة ، فكان يخلو بغار حراء ، فيتحنث فيه — أى : يتعبد — الليالى ذوات العدد ، قبل أن ينزع إلى أهله ، ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها .

وكان صلوات الله وسلامه عليه ، يغادر مكة منغمسة فى الضلال ، ليعتكف فى غار حراء متعبداً ، حتى قالت العرب : « إن محمداً قد عشق ربه » .

واستمر الأمر على هذا النسق — من الاعتكاف والعبودية — إلى أن كان الوحي ، وكانت كلماته الأولى : (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ) .

وأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ هذه اللحظة يتحقق بالقرآن فى واقعه وأصبح للقرآن صورتان :

صورة نظرية كلامية : هى هذه النصوص التى توحى .

وصورة واقعية حية تتمثل فى رسول الله صلى الله عليه وسلم تمثلاً كاملاً . . . حتى يمكن أن يقال عنه صلى الله عليه وسلم ، إنه كان قرآناً حياً يسير بين الناس . ولقد قالت السيدة عائشة — رضى الله عنها — تصف خلقه صلى الله عليه وسلم : « كان خُلِقَ القرآن » .

وكلمة « الخلق » هنا : إنما تعنى حياته كلها ، لقد كانت حياته كلها قرآناً ومن أجل ذلك كانت الآيات الكريمة تعبر عن ذلك بوضوح :

(مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ) . .

(إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ) . .

(فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) .

أما الوصف الذى يجمع كل ذلك فى يقين جازم ، ويبين أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد خلص لله بجميع أقطاره ، وأصبح ربانياً ، فهو قوله :

(قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ) .

إن حياة الناس تخلص لله — على تفاوت فى هذا الإخلاص — فى بعض الأوقات .

أما حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد خلصت كاملة — فى ليله ونهاره ، فى صمته ونطقه ، فى حركته وسكونه — لله سبحانه . . . ولم تكن حياته وحدها هى التى خلصت لله . . . وإنما كان مماته أيضاً .

ولقد ميزت هذه الآية الكريمة بينه صلى الله عليه وسلم ، وبين بقية البشر . . . وصدق فيه قول الإمام البوصيرى — طيب الله ثراه ، وجزاه خير ما يجزى محباً لرسوله :

فبلغ العلم فيه أنه بشر وأنه خير خلق الله كلهم

والإمام البوصيرى يتابع فى ذلك قول الله تعالى :

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ) :

والأخ الفاضل الأستاذ حسن اللطوى ، يتابع الجو القرآنى ، فى الحديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويتحدث عن هذه المعانى التى ذكرناها . . . يتحدث

عنها في استفاضة وفي دقة ، ويتتبع القرآن الكريم فيما ذكره عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، تتبع الرجل المؤمن الدقيق ، الذي مارس الحياة الروحية ممارسة العابد المتبتل ، فأناه الله فقهاً في الدين وفهماً في كتابه الحكيم .

والأستاذ حسن الملتاوي من هؤلاء الذين اتجهوا إلى الله في صدق ، ووقفوا حياتهم للدعوة إليه بالقول وبالسلوك ، فنحى الله سبحانه وتعالى ، فهماً في المجالات الروحية لا تتاح إلا لمن أخلصوا وجههم لله سبحانه .

ونحن نعتبط كل الاغتباط ، بأن وفقه الله تعالى للكتابة عن الرسول صلى الله عليه وسلم في القرآن الكريم . . . فإنه من خيرة هؤلاء الذين يعالجون هذا الموضوع . وليس هذا بأول شيء كتبه الأستاذ حسن الملتاوي ، في التوجيه الروحي ، أو البحث الديني ؛ فقد كتب من قبل عن التصوف ، وعن الذكر ، وعن السيدة خديجة رضوان الله عليها ، وكتب في الفقه على مذهب الإمام مالك . . . وهو دائم العمل لخدمة الإسلام بكل ما يستطيع .

وكتابه هذا يأتي قمة من القمم الشاخنة ، في مجال الهداية إلى الله ، وفي مجال الدعوة إلى التأسى برسول الله صلى الله عليه وسلم .
وإننا نرجو له التوفيق الدائم ، والعمل المستمر . . . لخدمة دين الله ودعوة رسوله . . .

ونرجو الله سبحانه وتعالى ، أن يثيبه أحسن الثواب ، وأن يجزيه خير الجزاء ، وأن يوفقه دائماً إلى الصراط المستقيم .

عبد الحليم محمود

مقدمة

الحمد لله الذى بنعمته تمّ الصالحات ، والصلاة والسلام فى أكمل صورهما على سيدنا محمد الذى ختم الله به المرسلين ، وجعله رحمة للعالمين ، وهدى به إلى الحق وإلى صراط مستقيم . . . صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ، ألا إلى الله تصير الأمور ، ورضى الله أحسن الرضا عن آله الأطهار الأخيار ، وعن صحبه الكرام الأبرار ، وعن والاهم بإحسان إلى يوم الدين ، وأنتك حزب الله ، ألا إن حزب الله هم المفلحون .

أما بعد . . .

فإن الكتابة فى شأن سيدنا ومولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم سهلة وصعبة ، أما سهولتها فتأتى من سعة مواردها ، وكثرة مصادرها ، وأما صعوبتها فتنشأ من سمو قدره ، وعلو مقامه ، فيجد الكاتب مادة الكتابة غزيرة فى سيرته العاطرة ، ولكنه مهما كتب وأبدع يرى ما كتب بعيداً عن تحديد صورته الحقة ، فيخجل من وضعه ، ويخشى أن يكون مسيئاً على غير ما أراد ، ولكنه لا يلبث أن يتبين أن ذلك ليس راجعاً إلى قصور فى استعداده ، وإنما يرجع إلى عظم المكان والمكين ، وكذلك كان شأن من سبقوه على كثرتهم ، فيلمس عندهم وعذرهم ويقول ما قاله :

فبالغ وأكثر لن تحيط بوصفه وأين الثريا من يد المتناول
ويعتل نفسه بأن ما قاله إنما كان بلسان الحب والتقدير ، تبصرة وذكرى لثله
من المؤمنين المحبين ، ويتمثل قانعاً فيقول :

وقد كفانى أنتى محب وأن الما — مع من أحب يحشر
وقد كنت حاضرت منذ عشر سنوات بنادى التجارة وكان موضوع المحاضرة :
« رسول الله صلى الله عليه وسلم فى القرآن الكريم » .
وختمت المحاضرة بقولى :

ولأأبرح مكاني هذا قبل أن أتقدم لمولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم بخالص

التحية والإعظام ، وبيالغ اعتذارى من قلة جهدى فيما تحدثت به عن مقامه الكريم ، طامعاً أن يحمل قصورى على رأفته ورحمته بالمؤمنين .

وأراني مضطراً في مستهل كتابى هذا أن أكرر ذلك القول وأنا موقن بقبول عذرى واعتذارى ، لأنه صلى الله عليه وسلم أجدر من قبل المعذرة ، وأغضى عن قصور استدعته الضرورة ، وقد كان من شمائله ألا يرد سائلاً أو يخيب رجاء .

وقد كان لتلك المحاضرة أثر في نفوس السامعين ، وكنت قد نهجت فيها نهجاً فيه شيء من التجديد ، وعدم التقيد بالتقليد ، في الآيات التي قيل إن رسول الله صلى الله عليه وسلم عوتب فيها ، وألهمنى ربي من عطاءه ، أن أنبئ العتاب من نصوص القرآن الكريم ، وأربط القصة الواحدة برباط الآيات المتفرقات ، فتظهر الصورة في الحادثة الواحدة متكاملة صافية لا شية فيها ، وقد أبدى لى استحسانه لما قرأ بعض أصحاب الرأى من القراء الكرام .

وقد تشرفت بعد ذلك بزيارته صلى الله عليه وسلم بالمدينة المنورة ، واستأذنته وأنا بين يديه أن أكتب هذا الكتاب ليتم به ما بدأت به بالمحاضرة المذكورة ، ومرت الأعوام دون أن أكتب شيئاً ، حتى أسعدنى الله برؤياه صلى الله عليه وسلم في المنام في فجر الاثنين ٥ من شوال ١٣٨٦ هـ (الموافق ١٦ من يناير ١٩٦٧) - وتتلخص الرؤيا المباركة السعيدة في أننى كنت والأخ الصالح الأستاذ توفيق أبو علم الوكيل الأول لوزارة العدل في الدور الثانى من منزل ، وجاء من يبشرنا بأن مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم سيشرفنا بزيارة ، فأسرعنا بالنزول لاستقباله ، فلما دخل وأشرقت أنواره البهية وطلعت الزكينة ، قبلت يده الشريفة وذكرت له اسمى ، وأحسست أننى في جانبه صغير جداً في نفسى ، ثم استيقظت .

وقد قابلت بعدها بمدة زميلى الفاضل الأستاذ توفيق أبو علم عند الكعبة المشرفة من عامين ، وكنتاً معتمرين ، فقصصت عليه الرؤيا وبشّرت به ، فسرتّه كل السرور ، ثم التقينا في رمضان الفائت في الحرم النبوى الشريف (وكنت أخبرته بعزى على كتابة هذا الكتاب بعد أن ألقى المحاضرة المذكورة) فإذا به يقول لى ونحن في الحرم النبوى الشريف : ماذا تم في الكتاب ؟ إننا ننتظر صدوره في شوق شديد ، فمرَبَطْتُ بين قوله هذا وبين تذكر الرؤيا الشريفة ، وقلت في

نفسى : لعل تذكيرى بالكتاب ونحن فى الرحاب النبوى يتضمن لإذناً نبويّاً بالكتابة ، وقد تفاعلت باسم الزميل توفيق أبو علم ، وأملت أن يصحبنى التوفيق فى الكتابة عن صاحب العَلَمَ صلى الله عليه وسلم ، وبخاصة أن الزميل توفيق قد وفق فألف كتاباً قيماً عن : « أهل البيت » وتمّ طبعه ونشره ؛ وعدت من المدينة المنورة ، فبدأت الكتابة فى شوال الفاتت ، وتيسر لى ما يقرؤه القارئ فى هذا الكتاب الذى بين يديه ، ولعل التوفيق حالفنى فيه كما أملت . فتكون الرؤيا قد تحققت فى التقائنا السعيد معاً بمولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عالم التأليف الذى يتصل به وبأهل بيته الكرام ، ويكون تفضله بالزيارة فى الرؤيا علامة القبول بإذن الله .

وفى غضون الأيام القليلة الفاتتة ، بشرّنى تلميذى الصالح الدكتور عجمى حسين عجمى برؤيا مباركة ، رأى فيها مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول له كلاماً يقرّظ فيه الكتاب ، وكان يذكر الكلام فى أثناء الرؤيا ، ولكنه نسيه بعد استيقاظه ، وأخذت من رؤياه بشرى الإذن بالكتابة ، وبشرى أخرى بالقبول ، والهدية على قدر مهديها ، وليست على قدر المهداة إليه صلى الله عليه وسلم .

ومع صعوبة المرتقى فى الكتابة عنه ، والإحاطة به صلى الله عليه وسلم ، فإن اللجوء إلى كتاب الله تعالى أنار لى سبيل الاهتداء بأنوار القرآن الكريم إلى معالم الطريق ؛ ولئن كان القرآن الكريم واسع الأقطار ، عميق البحار ، إن مباحث الكتاب ازيّنت بأنواره القدسية المشعة ، وهو ما يعطى القارئ سعادة روحية ، فى أن يستمتع بها ، ويعترف منها مشرباً هنيئاً سائغاً للشاربين ، على قدر ما استطعت مناولته من تلك الأقطار الواسعة والبحار العميقة ، ولا سيما أنى قصدت أن يكون الكتاب دعامة من دعائم التربية الإسلامية الصحيحة للقارئ . بما ضمنتها فى كل مناسبة من أقوال أسلافنا الصالحين ، وإرشادات أئمتنا العارفين ، إلى جانب القصد الأصيل من عرض صور مختلفة مما ورد عنه صلى الله عليه وسلم فى كتاب الله عز وجل ، ذلك الكتاب العزيز الذى لا يأتية الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، والذى أيد الله به الرسالة المحمدية على مر العصور والدهور ، فكان أخلد المعجزات وأبقاها على الزمن ، كما كان الحصن الحصين للمسلمين من الفتن ما ظهر منها وما بطن .

وإذا رآني القارئ الكريم قد أطلت قليلا في بعض المواطن التاريخية فليعذرني ، فإنني أردت بالتطويل أن أرد القارئ إلى الفهم الصحيح في الموقف الدقيق ، الذي خاض فيه الحائضون ، وليج فيه المفترون من المستشرقين ، لأغراض ذنيّة ، قصدوا بها تشويه الحقائق وتليبسها على الناس لحاجة في نفوسهم أضمرها كيدا للإسلام والمسلمين ، وقد يتأثر بما كتبوا بعض الناشئين من المؤمنين - عن حسن نيّة - إذا لم يكن ملمّا بحقيقة تلك المواقف التي تتصل بسيد المرسلين وأطهر المطهرين ، في حياته أو بعد وفاته صلى الله عليه وسلم .

كذلك أرجو أن يعذرني القارئ الكريم إذا رآني قد خالفت ما جاء في بعض التفاسير ، مما لا يليق به صلى الله عليه وسلم ، أو بإخوانه المرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، فعصمة الأنبياء والمرسلين عندي مؤكدة بيقين ، وما نسب إليهم من الوقائع لا يحمل الأمر فيه على ما يقع منا من ذنوب أو مخالفات بحجة أنهم بشر ، فهم حقيقة بشر ، ولكنهم مصطفون بعلمه سبحانه ، ومطهرون بفضله تعالى ، وقد أثبت لهم الله فضلهم في القرآن الكريم ، فلننظر في أمورهم بعين ذلك الفضل ، ولا ننقصهم منه شيئا ، ولا يغيب عنا لحظة واحدة قوله تعالى : (اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ) أو قوله تعالى : (أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ) أو قوله تعالى : (إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ) ، أو قوله تعالى : (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) .

وإنني أحمده سبحانه وتعالى إذ وجدت عونته فيما كتبت ، وعلامة الإذن التيسير كما يقول العارفون ، كما أن المعاني التي ألهمنيها ربي وجدت بعد ذلك مقررة فيما وقع لي من مراجع العلماء العارفين ، وتوارد خواطري ، وانفاقها مع خواطرم ، إنما هو بركة من بركات سيدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد غمرني بنعمة الله طوال حياتي ، ولست أنكر ذلك لأنه تحدث بنعمة الله ، كما لا أنكر أني محب له بكل ذرة من ذراتي ، وبكل نفس من أنفاسي ، وبكل إحساس من أحاسيسي ، وكنت أقول لنفسي وأنا أكتب ذلك الكتاب :

ما شئت قل فيه فأنت مصدق فالحب يقضي والمحاسن تشهد

وكنت أقول ذلك مع تصديقي لما قاله إمامنا البوصيري رضي الله عنه في همزيته :

إن من معجزاتك العجز عن وصفك إذ لا يحده الإحصاء

ولقد عذرت سادتنا الصحابة الكرام ، وعلى رأسهم الأربعة الكبار سادتنا أبو بكر وعمر وعثمان وعلى رضي الله عنهم ، حين طاشت عقولهم بموت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى هدد عمر أن يضرب بسيفه من يقول إنه مات ، وخرس عن الكلام عثمان ، وأخذ الإمام عليّ يروح ويحيى ، وكان أثبتهم أبا بكر ، ولكنه مع ثباته وتمكينه جاء وعيناه تهملان ، وزفراته تتردد ، وغصصه تتصاعد وترتفع ، فدخل على النبي صلى الله عليه وسلم فأكب عليه ، وكشف للثوب عن وجهه ، وقال : طببتَ حياً وميتاً ، وانقطع لموتك ما لم ينقطع لموت أحد من الأنبياء ، فعظمت عن الصفة ، وجللت عن البكاء ، ولو أن موتك كان اختياراً ، بلجنا لموتك بالنفوس . اذكرنا يا رسول الله عند ربك ، ولنكن من بالك .

أما السيدة الزهراء ، وهي أحب بناته إليه صلى الله عليه وسلم ، فقالت راضية مرضية فيما رواه البخاري رضي الله عنه : يا أبتاه ، أجب رباً دعاه ، يا أبتاه ، من جنة الفردوس مأواه ، يا أبتاه ، إلى جبريل نعاها .

وأما أنس بن مالك ، وهو خادمه الأمين رضي الله عنه ، فقد قال فيما رواه الترمذي رضي الله عنه : لما كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة أضاء منها كل شيء ، فلما كان اليوم الذي مات فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم أظلم منها كل شيء ، وما نفضنا أيدينا من التراب وإنما لني دفنه حتى أنكرنا قلوبنا

وأما حسان بن ثابت رضي الله عنه وهو شاعره الخاص فقد قال :

كنت السواد لناظري فعمى عليك الناظر
من شاء بعدك فليمت فعليك كنت أحاذر

وتلك الكلمات على قلتها تريك أثر محبته صلى الله عليه وسلم في المحيطين به عن قرب ، والواقفين على أقواله وأفعاله وأحواله ، وقد أوجزت السيدة عائشة وصفه ، وهي

الفقيهة الراشدة ، واللببية العافلة ، والزوجة الأثيرة ، بنت الصديق الأثير مولانا أبي بكر وهو أول المؤمنين لإسلاماً من الرجال ، وأول الخلفاء الراشدين ، والإمام الأكبر ، والعلم الأشهر ، فقالت : كان خلقه القرآن .

وحسبك من وصفها هذا أنه صلى الله عليه وسلم استنار بنور القرآن، وتآدب بأدب القرآن ، وتحلّى بأحكام القرآن ، فكان أفضل البشر وأكملهم على الإطلاق ، كما كان خير الخلائق أجمعين من أهل السموات وأهل الأرضين ، فهو صنوّ ربه الأصنوّ ، وحبيبه الأسمى ، ومختاره الأوفى ، ومجلاه الأعلى ، ومصطفاه الأولى ، وإن سألت دليلاً على ذلك فاقرأ قوله تعالى : (وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ)^(١) فهو كما ترى ميثاق ربّانيّ بزعامته صلى الله عليه وسلم للوسئل أجمعين .

وإذا رأيت أن تتذكر بعض شمائله التي حلاه الله بها وطبعه عليها ، فأليك ما قال صاحب تحفة الأخيار ، سيدى العارف بالله أبو عبد الله الأنصارى التونسى المالكي ، المتوفى في سنة ٨٩٤ هـ :

« كان عليه الصلاة والسلام أكمل العالمين خلقاً وخلقاً ، وتذكّر وفور عقله وذكاء لبّه ، وقوة حواسه ، وفصاحة لسانه ، واعتدال حركته ، وحسن شمائله ، وشرف نسبه ، وكرم بلده ، وحلمه واحتماله ، وعفوه مع قدرته ، وصبره على ما يكره ، وجوده وكرمه ، وسخاءه وحياءه ، وشجاعته وسماحته ، ونجدته وفضيلته ، وصفاء مودته ، وبذل تضحيته ، وحسن عشرته وآدابه ، وشفقته ورحمته بجميع الخلائق ، وحرصه على إيمانهم ، ووفاءه وحسن عهده ، وصلة رحمه ، وتواضعه على قدر رفعة وعلو منصبه ، وعدله في سيرته ، وأمانته وعفته ، وصدق لهجته ، ووقاره وصحبته ، وتأدبه ومروءته ، وحسن هديه ، وزهده في الدنيا ، وخوفه من ربه ، وطاعته له ، وشدة عبادته ، وعلمه بربه ، وشكره وإنابته إلى ربه ، وحسن قيامه بحقه ، وجميل